مرافعات ضد الاستشراق

كلمات مفتاحية؛ استشراق ،فكر عربي

د. علاء جعفر حسين

كلية الآداب/ الجامعة المستنصرية

Broclaims against Orientalism
Word Key: Orientalist, Arabic Idea
Dr. Ala'a J. Hussain
University of Al-Mustansiriyah
College of Arts
Philosophy Department

الملخص.

على الرغم من تلك القفزة التي حققها الاستشراق، إي الخروج من بوتقة البحث الكلاسيكي التقليدي الى التجديد فقد تأثر معظم المستشرقين بالموجه المادية التي سادت أوربا ، فطبقوا المنهجية الوصفية على العلوم الإنسانية، ومنها العلوم الإسلامية، ومن ثم جاءت بعض أبحاثهم خاطئة ، لعدم الدقة في اختيار المنهج وكيفية تطبيقه فضلاً عن البون الشاسع بين بيئة المنهج المطبق وبيئة موضوع الدراسة بين بيئة المستشرق وبين بيئة الشرق الإسلامي. وإزاء هذه الالتواءات والانثناءات، في نشأت المنهج وتطبيقاته، نتسأل: ما هذه المناهج التي يزعم المستشرقون التعويل عليها في كتاباتهم؟ وهل كلها صالحة لكل الموضوعات البحثية؟ بمعنى: هل مناهج العلوم الطبيعية صالحة للتطبيق على العلوم الإنسانية؟ وهل ما يصح للعلوم الإنسانية يمكن إخضاع العلوم والمعارف الغيبية لها؟ بمعنى آخر: هل المنهج المتبع يتطابق مع موضوع الدراسة؟ لذا أستخدم المستشرقون عدة مناهج في دراساتهم للإسلام منها ما يتوافق مع المزاج العربي !ومنها ما لا يتوافق.

Abstract

In spite of that leap of Orientalism, that is, out of the traditional classical research potency to modernity, most orientalists were influenced by the materialistic tendency that prevailed in Europe. They applied the descriptive methodology of the humanities, including the Islamic sciences, and some of their research came wrong, The curriculum and how to apply it, as well as the vast gap between the environment of the applied curriculum and the environment of the subject of study between the orientalist environment and the environment of the Islamic East. In the face of these distortions and inclinations, in the origin of the curriculum and its applications, a question arises: What are these approaches that Orientalists claim to rely on in their writings? Are they all valid for all research topics? Meaning: Are natural science curricula applicable to human sciences? Is it true that human sciences can subject science and knowledge to the unknown? In other words, is the curriculum consistent with the subject of the study? Therefore, Orientalists used a number of curricula in their studies of Islam, including those that are compatible with the Arab mood, including what is not compatible،

المقدمة ـ

يشير مصطلح مرافعة الى مداخلة تتضمن دفاعاً عن المعني بالأمر. وهي حق تقديم أوجه الدفاع عن المتهم. وعلى من يترافع أن يضع مجموعة من الاسئلة يجب على المتهم الاجابة عنها ..ولكن في هذا الحقل تأتي طواعية وليست قسرية. ومن جملة هذه الاسئلة التي اقلقت من تصدى للمرافعة في الدفاع عن أصالة الفكر الاسلامي عموماً والعربي خصوصاً هي من ينظر الى من؟ وبأي وسيلة؟ وهل هذه النظرة شرعية ؟ هذا بالأضافة الى مقاييس شرعية هذه النظرة؟.

إن غرب القرن العشرين رأى من وراء الطلاء المفتت، لنفسه نظرة الآخر تنبجسُ، خلافاً لما يتمنى. فلاشك أن أوربا سبق لها في الماضي أن جابهت الآخر، احياناً كذات. وكما يقول (تييري هنتش) في كتابه

الشرق المتخيل: الذاكرة الجمعية تعرف أن أسماء العرب - أو السراسنة- والترك، كانت تدل في العصر الوسيط على خصوم مخيفين، كان يجري التقايس معهم في احسن الاحوال ،بأسلحة متساوية !غير أن التهديد الاسلامي توقف، الى ان وصل لدرجة عدم إظهار أي ممانعة، للهيمنة الغربية. لكن الآن الحال تغير بشكل ملفت، مما أدى الى استيقاظ وانبثاق الذاكرة الجمعية للغرب. فالشرق هذه المرة متمرد، عنيد ،رافض للنظام القائم، ولكل الصور السحرية المشبعة بالعري ،وعدم القدرة على الابداع ...وغيرها من الصور الكثير.

إن الشرق بكل وضوح هو (شرق القلق) وهذا سببه الاسقاطات المفاهيمية للغرب عنه. من هذا كان لابد من ظهور خط رافض لكل ألوان الحداثة ، التي نادى بها مجموعة من المفكرين العرب ،لاسيما أولئك الذين تتلمذوا على يد أكابر المستشرقين، فالغرب أو الاستشراق واحد لا يتجزأ وهو يصدر عن مؤسسة واحدة غايتها الهيمنة ،واخضاع الشرق بكل مفاصله للقادم من الجهة الاخرى للبحر المتوسط. إن ما يريده هؤلاء الذين يمثلون الخط الرافض لأطروحات المستشرقين، واخذو على عاتقهم المرافعة ضد التهم الموجه للشرق،هو أن الاحترام لم يعد كافياً، ولابد من استقبال الشرقي بوصفه نظيراً بحد ذاته ،وهي الطريقة الوحيدة لعكس الذات فيه ،كما يرى (جاك بيرك).من هذا المنطلق شمرت مجموعة استثنائية من المفكرين العرب عن سواعدهم، لصياغة مرافعة، بإمكانها أقناع الآخر الغربي، وتغيير الصور الخليعة التي رسمت بيراع مستشرقين. والملفت في هذه المرافعة انها استطاعت، أن تصل بل وتخترق الثقافة الغربية ! لانها استخدمت عين الآليات المستخدمة من الآخر ،من مناهج ولغة.

إن النماذج التي انتقيت ،من مفكرين عرب،هذا لا يعني ،أن الرفض أو المرافعة تقتصر عليهم فقط، لكن مساحة البحث لا تسمح من ناحية الكم وليس النوع. الرسالة التي يهدف ايصالها هؤلاء هو ،ان الاستشراق ،لا يمكن أن يرد عليه بالاستغراب!،أي برفض شرقي للغرب ،فيتأكد القطع بين شرق الانسانية وغربها. إن الاستشراق من معانيه نفي التخاطب ،والخطاب بصيغة نحن المستقبل وأنتم الماضي. فالاستشراق من حيث هو مشكلة تخلف الغرب عن معرفتنا العلمية الموضوعية انطلاقاً من اعترافه الكامل بنا ،وهذا الاعتراف يأتي السياسي في مقدمته والمعارف الاخرى ،تأتي تباعاً، كالتقني والمعارف الحسية للعالم الخارجي ،فالمعرفة الدينية والفلسفة...لا يضارعه سوى ما يمكن وصفه بالاستغراب الشرقي ،أي كره الغرب ليس بمحاربته، وليس بالتمايز المشروع عنه وحسب ،بل خصيصاً بالانغلاق عنه ،والتهرب من معرفته ،وبالتالي رفض الإعتراف به ،بل بقدر ما يكون مستعداً للتراجع على صعيد مشاريعه المعادية للشرق ،وللعرب.

افتتاحية اخرى

إن الاجابة عن السؤال الاول، تبدو واضحة، فالذي ينظر للشرق(الأنا) هو الغرب (الآخر). بينما الوسيلة أو الآلية المستخدمة في تفكيك بنى الشرق السحري ،هي (المناهج)، التي ترافق تتطورها، مع الطفرات المعرفية الحداثية. فمنها التاريخي والتحليلي والاسقاطي، والاشدها خطورة هو منهج الأثر والتأثير. إذ تقوم فكرة هذا المنهج على رد الظواهر المدروسة إلى عوامل خارجية أثرت في قيامها بمجرد وجود تشابه بينهما ، فالمفهوم

المستقيم لهذا المنهج هو: أن تبادل الآراء قديماً وحديثاً والتفاعل والتأثر والتأثير بين الناس ، وبين العلماء سنّة اجتماعية لا يمكن إنكارها ولكن يجب مراعاة الآخرين في ضوء هذا المنهج .وهذا يستوجب :-

١ـ الاستفادة ـ نتيجة التأثير والأثر_ شيء وإنشاء مذهب مستقل شيء آخر.

٢ ـ أن التأثر ينطبق على الفكر البشري فهذه طبيعته ، يؤثر ويتأثر وذلك لمحدودية المعرفة البشرية ،لذاعلى المستشرق في هذا المنهج تجنب نزعة التعالي والترفع العلمي ، لاعتقادهم إن الحضارة اليونانية ـ والحضارة الأوربية ـ هي أصل الحضارات ومن ثم فهي المؤثرة دائماً ، وكل شيء يرد إليها ، وهذا واضح نتيجة الشعور المتعاظم بالمركزية الأوربية التي هي المصدر الأول للمعارف وكل شيء صادر عنها ، ويعود إليها ، ولكن الذي يلحظ هنا، استناداً للدراسات الموضوعية المنصفة إن العلاقة بين الفكر الإسلامي والحضارة اليونانية كانت علاقة رفض أكثر منها علاقة قبول .[١] كذلك إن الخطأ الذي وقع فيه أغلب المستشرقين ، ناتج عن تصور العلاقة بين الثقافات على أنها أحادية الطرف ، الأولى معطية منتجة مبدعة وهي الثقافة الأوربية ، والثانية مستقبلة ـ دائماً ـ مجّدبة فارغة ، خاوية وهي الثقافة غير الأوربية . [٢] وهذا ما عده " مكسيم رودنسون " نقصاً صارخاً في استخدام المنهجيات ، ذلك لأن ظاهرة المعرفية المركزية الأوربية انتجت رؤية جوهرانية ومثالية للحضارات ، وهذا التصور متجذر وراسخ ، ثابت لا يتغير ولا يتبدل . إنه لاصق بكل شعب . وهذه الجوهرانية تتطابق مع المركزية اللاهوتية وذلك تحت تأثير تاريخ الأديان المتطورة جداً فهو ترابط لا مفر منه بين الاستشراق وحركة الأفكار العامة للغرب فقد كانوا يعتقدون بأولوية النموذج الأوربي وتفوقه على جميع النماذج الحضارية الأخرى.[٣] وبذلك أرجع كثير من المستشرقين جوانب الإبداع في الفكر الإسلامي ، إلى أصول خارجية وهذا ما نراه في الفلسفة الإسلامية عموماً والتصوف الإسلامي خصوصاً ، ولعل أبرز تلك الأمثلة هو العمل الضخم جدا الذي قدمه (لويس ماسينيون) حول الحلاج ، و (أسين بلاثيوس) عن أبن عربي ، وغير ذلك من الأعمال التي هي من الدقة والتحليل ما جعلها تفقد عنصرالموضوعية، فيما توصلت إليه من نتائج تدلل على آثر الفكر الأوربي على تلك الإبداعات، سواء على الصعيد النظري الفلسفي أو التجربة الصوفية مما افقدها عناصر القوة فيها ، ومصادرة العنصر الإبداعي لكل تجربة إسلامية .

إن الاتكاء على هكذا رؤية لأغلب المستشرقين يجعل من المتلقي للمنتج الاستشراقي وموضوعهـ الإسلام والمسلمين ـ تعامل المغرور المستأنس في نفسه ذي المقدرة الفائقةـ يشعر أن أصوله قوية ومتينة ، وأصول الغير أو الآخر منهارة أو هباء، وللأسف كان (ماسينيون) يغمره هذا الشعور أحيانا على الشرق وأهله ، فيقول " فيما يخص الشرقيين ، علينا أن نلجأ الى علم الرحمة الحانية، حتى في بناء لغتهم وبنيتهم العقلية ، التي ينبغي بحق أن نشارك فيها لأن هذا العلم في نهاية المطاف يشهد إما لحقائق هي لنا أيضا، أو لحقائق فقدناها وعلينا أن نستعيدها . وأخيراً لأن كل ما هو موجود هو ، بمعنى عميق ، خير بطريقة ما. هؤلاء المساكين المستعمرون لا يوجدون لأغراضنا وحسب بل يوجدون بذاتهم ولذاتهم"[٤] وهذا ما دفع (روزنتال) إلى نقد هذه النزعة المتعالية والبعد عن الموضوعية إذ يقول "من المزالق التي يندر أن يتحاشاها الباحثون الغربيون عند تقديرهم البحث العلمي عند المسلمين أنهم يضعون مقاييس صارمة يحكمون بموجبها على ما أنتجه الفكر الإسلامي، مقاييس

أشد صرامة من تلك التي تطبقها على ذواتنا نحن الغربيين، فإن العدل والإنصاف يقتضياننا أن نميز بين مختلف أنواع النشاط الأدبي ومراتبه التي من شأنها أن تترك أثراً بعيد الغور في طبيعة النتاج العلمي الرفيع، على إننا قلّ أن نرى عالماً غربياً يراعي هذا التمييز عندما يحكم على البحث العلمي عند المسلمين"[٥]

وبعد فنحن نأسف لمثل هذه المناهج التي تعرض تحت عنوان الأكاديمية والمنهجية ، وهي تخفي ورائها كثير من الأحكام المسبقة وما لها من تأثير ـ شعوري أو لا شعوري ـ يؤدي الى اختلال المنهج. وهذا لا يعني أن باستطاعة أي باحث في الاستشراق أن يصادر الجهود التي قدمت من قبل المستشرقين، فعلى الرغم من الضغوط الممارسة من قبل الأمم التي ينتمون إليها أو ضغوط التقليد البحثي الذي يعمل في سياقه، عمل هذا المستشرق أو ذاك على التشذيب والتصفية ، والأسلوب الشخصي والعنصرية الفردية التي قد تتجاوز الكوابح السياسية التي تفعل لا شخصانياً عبر التراث والمناخ القومي [٦]. وهذا لا يعني أن جميع المستشرقين لا يتسمون بالموضوعية ، بل على العكس من ذلك ، نجد أن بعض المستشرقين البارزين قد ضربوا بسهم كبير في الدراسات الإسلامية في سائر العلوم الاجتماعية ووجهوا الأجيال اللاحقة من المستشرقين [٧]،لما ينبغي في استخدام المناهج .

الشرق المتهم والقلق /المواقف الدفاعية:ـ

وقف مجموعة من المفكرين المسلمين موقف الرفض المطلق ، للاستشراق ، فلم يقبلوا أي إسهام من الثقافة الإسلامية لا يدينون بالإسلام . لم يقبلوه على أنه حجة وعلى أنه يقدم جديداً في المفهوم ، حتى ما جاء من باب الإطراء والمديح التي تلفظ بها بعض المستشرقين أو بعض الشخصيات الغربية ، فكان هذا الفريق يقف منها موقف المتحفظ ويحاول أن يقرأ ما بين السطور. وإن ما يبرر هذا الموقف هو اعتبار الاستشراق حركة استكشافية تبشيرية واكبت وعززت الحملات " الصليبية " الجديدة لأواخر القرن الماضي وللنصف الأول لهذا القرن ، والمتمثلة في الاستعمار الغربي للبلاد الإسلامية . وبما أن الاستشراق من هذا المنظور لا يجد مكانته ووظيفته الطبيعيتين إلا داخل الحرب الاستعمارية الصليبية ضد الإسلام ، فإن من واجب المثقف المسلم أن يفضح حقيقته العدوانية التآمرية ويقف منه موقف المعارضة والتضاد ، ولم يكن المعبرون عن هذا الموقف من العلماء التقليديين والدعاة السلفيين فحسب، وإنما نجدهم ايضاً من بين مفكرين إسلاميين لهم ثقافة غربية وحتى قدرة على التأليف بالفرنسية وبالإنجليزية.[٨] ولعل أبرز من يمثل هذا الاتجاه هم :ـ [٩]

١ـ الاستشراق واحد لايتجزأ!.محمد البهي: يُعد محمد البهي صاحب اتجاه نقدي صريح وتحليل فلسفي عميق، أساسه في ذلك القرآن، ولعل مؤلفاته التي ركزت على المواجهة تفصح عن ذلك، لذا هو أحد أعمدة الدعاة إلى الإصلاح في العالم الإسلامي المعاصر .

وعلى هذا الاساس قام بمواجهة الاستشراق وبعض الاتجاهات الفلسفية التي كانت تلقى رواجاً في العالم الإسلامي في حينه، ولا يبدو هذا غريباً منه فهو وارث مدرسة محمد عبده النقدية، ومدرسة إقبال الفلسفة وجامع بين الثقافتين. الأزهرية والأوربية علاوة على ما يمتاز به من الذكاء الفلسفي النافذ الذي يمحص ويدقق ويفحص محاولاً أن يحيط بالقرآن الكريم ومشاكل العصر الحديث. [١٠]

إن عدم الموضوعية لهؤلاء المستشرقين، هو ما دفع "البهي" إلى نقد الاستشراق ، حيث لا يفرق بين مستشرق وآخر ، رغم معرفته الجيدة بأعمالهم، فهو متخرج من ألمانيا في الثلاثينيات ، وظل يزور الغرب مسؤولاً أو استاذاً زائراً حتى الستينات، ومع ذلك فهو يورد في كتابه " الفكر الإسلامي الحديث ـ صلته بالاستعمار الغربي " [١١] فصلاً ملحقاً بعنوان "المبشرون والمستشرقون وموقفهم من الإسلام"[١٢] ولا يدرس هذا الفصل اطروحات المستشرقين المعاصرين ، أي الذين كانوا معروفين في الخمسينات مع أسماء مؤلفاتهم ، وفي القائمة الثانية : أسماء الخطرين من المستشرقين ـ على حد تعبيره ـ وفي الفترة الثالثة : أسماء بعض الكتب الخطيرة ـ على حد قوله أيضاً ـ وأيضاحاً لحقيقة المستشرقين ـ كما يذكر ـ فهو يورد مقالة لحسين مؤنس ، فيها نقد وإدانة لكتاب المستشرق الفرنسي المعروف "غاستون فييت" الذي يحمل عنوان "محمد الإسلام" ويورد البهي اخيراً ترجمة لمقالة عبد اللطيف الطيباوي المشهورة : المستشرقون الناطقون بالانجليزية ومدى إقترابهم من حقيقة الإسلام والقومية العربية " [١٣] وتطورت هذه المقالة فيما بعد واصبحت كتاب وقام بترجمته د. قاسم السامرائي ، الرياض ، جامعة محمد بن سعود ، ١٩٩١ م .

ويشكل هذا الكتاب أول إدانة شاملة للأستشراق، بل يصبح عند "البهي" العنوان الرئيسي للمؤامرة إلى ظاهرة تحول نقد الغرب والاستشراق إلى صراع ثقافي وداخلي، فهو يعرض في فصول متلاحقة العوامل المؤثرة في نشوء الفكر الإسلامي الحديث، بادئاً بذكر الاستعمار الغربي للعالم الإسلامي وظهور اتجاه فكري موالي له، ويكتشف في فقرة مشكلة علاقة الاستشراق بالاستعمار محدداً لتلك العلاقة بأمرين يتعلقان بالهوية، إذ النزعة الأولى لدى المستشرقين في نظره هي إضعاف القيم الإسلامية. والنزعة الثانية: تمجيد الغربية المسيحية [١٤]

ويرى البهي ان الافغاني وعبده لهما دوراً إيجابيا وأساسياً في نشأة الفكر الإسلامي الحديث، وهذا ما دفع به إلى النقاش الإسلامي الداخلي أو الصراع على الساحة الثقافية الداخلية ليتصدى لتيار "بشرية القرآن" الذي يمثل رمزه في نظر البهي ـ " طه حسين " وتيار "الإسلام دين لا دولة" ورمزه ـ في نظره ـ علي عبد الرازق ، وتيار " الدين خرافة " ورمزه " زكي نجيب محمود ، في حين يثني على " محمد إقبال " كونه أمتداداً لمدرسة " عبده " في فصل طويل ليرى بعد ذلك أن " مد الإسلام " يكمن في مواجهة الصليبية والشيوعية [١٥] .

يبدو "البهي" في كتابه هذا ، يذهب إلى الخلط بين المعرفي والعقائدي ، فهو نموذج واضح وبليغ لمواقف الرفض المتشنج ، وذلك من حيث إن معارضته الحادة للاستشراق ، التي لا غبار عليها ، هي الصانعة لصورة المستشرق كمبشر وباعث لمقالات هي سموم مبثوثة لتقويض الهوية الإسلامية ومحوها ، وتبقى هذه الصورة التي يؤسسها منطق الرفض المسبق والتضاد المنطلق والرافد الذي ينهل منه وتصب فيه كل صفحات الكتاب بكل أوصافها وتفاصيلها [١٦].

لقد أفرط وبالغ "البهي" في تصوير تأثير الاستشراق على مسارات واتجاهات الفكر الإسلامي ودوره في حركة الغزو الفكري والاختراق الثقافي، والتدمير القيمي والأخلاقي وكان مسكوناً بهذا الهاجس وكأن الاستشراق يمثل الخطر الأعظم على الإسلام والفكر الإسلامي. ويرى البهي أن للاستشراق الدور الاساسي والرعوي في تشكيل ما يسمى بالفكر الإسلامي الحديث أو ما اسماه هاملتون جيب بالاتجاهات الحديثة في الإسلام

يصنف اليوم كتاب (البهي) على دراسات النقد الثقافي للاستشراق ، ومن جهة اخرى يصنف على الدراسات التي نظرت للاستشراق من جهته السلبية المتوغلة في المدح والذم ، من حيث صلته بالاستعمار الغربي والتبشير المسيحي ، وأهملت النظر إلى الجهة الإيجابية التي لا يمكن التنكر لها كما تجلت في عمليات التحقيق والتنقيب والتأليف في دائرة التراث الإسلامي .

٢ـ الاستشراق وجه قبيح /مالك بن نبي :ـ واحد من أبرز المفكرين في العالم الإسلامي المعاصر ، تعرف على الفكر العربي الإسلامي عن طريق الاستشراق نفسه ، وأحاط به إحاطة شاملة ، وربما كرس حياته كلها للدفاع عن هذا الفكر وإنارة السبيل أمام الأجيال الإسلامية المعاصرة ويبدو أنه ذاق مرارة الاستعمار والتبشير وأدرك أهدافهم ، كذلك درس قضايا عربية إسلامية متعددة بعمق وشمول ومنهم ، وهذا ما جعله ينفرد بأصالة إسلامية كما نلحظ عند مفكر إسلامي معاصر [١٧].

في تحليل قصير للاستشراق في كتابه (إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث)[١٨] يرى إن الاستشراق " كان شراً على المجتمع الإسلامي إلا أنه ركب في تطوره العقلي عقدة حرمان سواء في صورة المديح والإطراء ، التي حولت تأملاتنا عن واقعنا في الحاضر وأغمستنا في النعيم الوهمي الذي نجده في ماضينا ، أو في صورة التفسير والإقلال من شأننا بحيث (صيرتنا حماة) عن مجتمع منهار، مجتمع ما بعد الموحدين، بينما كان من واجبنا أن نقف منه عن بصيرة طبعاً ولكن دون هوادة ، ولا نراعي في كل ذلك سوى مراعاة الحقيقة الإسلامية غير المستسلمة لأي ظرف في التأريخ دون أن نسلم لغيرنا حق الإصداع بها والدفاع عنها لحاجة في نفس يعقوب"[١٩]

واضح إن سوء الظن هذا على مواقف الغربيين أنفسهم من الثقافة الإسلامية ومن المسلمين ، فما يتوقع منهم أن يقفوا من الإسلام وأهله موقف الناصح الصادق في نصحه الساعي إلى تطوير المفهوم إلى الأفضل . ولذا ينبغي إغفال هذه الفئة من المستشرقين وعدم إعطائها الاهتمام، وعدم الانشغال بها في وقت نحن فيه بحاجة إلى التركيز على قضايا تعصف بالأمة من كل جانب في مجالات شتى وفي المجالين الفكري والثقافي بخاصة واعطاء الاهتمام لهؤلاء يشعرهم بأهميتهم ويفتح لهم المجال للخوض فيما لا يعنيهم أثره بما خاضوا، عندما يدركون أن لإنتاجهم تأثيرا على علماء المسلمين ومفكريهم ومثقفيهم وتركهم منه صدّلهم وتثبيط لجهودهم[٢٠]

لقد اهتم "بن نبي" بدراسة أثر الأدب الاستشراقي في الفكر العربي الاستشراقي المعاصر فتعرض لدوزي ورينو واسين بلاثيوس ولوبون ، قائلاً "إن الجيل المسلم الذي أنتسب إليه يدين إلى هؤلاء المستشرقين الغربيين بالوسيلة التي كانت بين يديه [٢١] لمواجهة مركب النقص الذي اعترى الضمير الإسلامي أمام ظاهرة الحضارة الغربية " ويؤكد انه واشباهه من العرب المسلمين يدينون لأمثال هؤلاء المستشرقين على الأقل في المحافظة على شخصيتهم الإسلامية ، ومع ذلك فإنه يقرر أن مدحهم للتراث العربي الإسلامي قد جاء بعواقب خطيرة للغاية لأنه كان بمثابة مخدر يجعل النائم يواصل نومه غلى ما لا نهاية له. وإذا حدث أن استيقظ مفكر مسلم فإن هناك من أعده الاستعمار من المستشرقين ليقوم بإبطال فعاليته " كلما تقدم هذا المفكر المسلم بحل للمشكلة ، ليسرع من قبلهم أولئك الأخصائيون لدراسة هذا الحل فإن كان خاطئاً، زادوا من شحنة خطئه بطريقة أو

بأخرى ، وإن كان منه ما يفيد حاولوا بكل جهودهم التقليل من شأنه والغض من قيمته حتى لا يفيد "[٢٢] " وكل ما يتبع الصراع الفكري في العالم الإسلامي الحديث يلاحظ فيه وجود هذا القانون غير المكتوب ، ولعل المسألة الجوهرية عند " بن نبي " في هذا الحقل طرحها في صيغة سؤال : هل نكون أو لا نكون؟ ويرى الحل إذا أردنا أن نكون فليس علينا أن نحدد الأشياء ، بل أن نحدد الأفكار[٢٣] . أن التجديد الذي يذهب إليه كل من في المنهج القرآني الذي يجب أن يقف في وجه المنهج الديكارتي ، وذلك لأن ما حدث في المناخ العقلي بظهور القرآن الكريم في تغيير أعظم من أي شيء ظهر وبعده على الإطلاق، إذ " لا شك أن هذا السلم هو الذي أتاح للفكر الإسلامي الانطلاق في عصر الشيئية في العصر الجاهل لتلك القمة الشامخة التي شع منها العلم على العالم الذي كانت تخيم عليه الظلمات" [٢٤]

إذن فيجب العودة الى التجربة الإسلامية الأصيلة وترك كل ما هو خارج عنها ، إذ المؤكد انه ليس "ذلك الأدب المطنب في المدح والتمجيد لماضينا إلا وسائل لفت في المجال السياسي أو المجال الفكري ، حيث يلتفت العالم الإسلامي عن أهم مشكلاته ألا وهي مشكلة حضارته"[٢٥] وذلك كله لكي يستورد قيمته الثقافية من الخارج لأن " المجتمع الذي لا يصنع أفكاره الرئيسية ، لا تمكنه على أية حال أن يصنع المنتجات الضرورية لاستهلاكه، ولا المنتجات الضرورية لتصنيعه ولن يمكن لمجتمع في عصر التبشير أن يشيد بالأفكار المستوردة أو المسلطة عليه من الخارج سواء كانت تمت إلى الاستشراق أو الشيوعية[٢٦] .

إذن فالطريقة الوحيدة للتقدم والنهضة والازدهار هو الرجوع إلى القرآن ومنهجه الفريد ليس إلا . ليس من الممكن مناقشة مثل هذه النتائج والخاتمات مادام الراجح هو أن صاحبها لا يرغب في النقاش أو في تليين دوغمائيته، بل يريد فصل المقال وقطعه وسد كل الطرق أمام البحث الجدلي والتمييز العقلي ، فموقف (بن نبي) يبدو في غاية التشنج ، والرفض لكل ما هو منتج استشراقي في محاولة منه لتضييق الخناق على المستشرقين بدون تمييز وغلق كل المخارج والمنافذ أمامهم ، فكلهم في تشويه الإسلام سواسية ، وكلهم يتحملون خطيئة التأثير سلباً على الفكر الإسلامي الحديث.

٣ـ *الاستشراق عباءة التبشير/ عبد اللطيف الطيباوي* :ـ تعُدّ الدراسة التي قدمها " الطيباوي " " المستشرقون الناطقون بالانجليزية دراسة نقدية " [٢٧] من الدراسات المهمة في مجال الاستشراق ، ويشير " إدوارد سعيد " [٢٨] ضمناً إليها من ناحية السبق في نقد الاستشراق.

يخرج " الطيباوي " لنا بنتيجتين فيهما دعوة ضمنية لتحديد موقف الرفض من دراسات المستشرقين ، وهما أن المستشرقين المحترفين ـ باستثناء قلة شريفة منهم ـ "مازالوا يصرون على تشويه الإسلام وتزييف حقائقه ، بيد إن التسامح الذي أظهره بعض كهنة النصارى يدعوا إلى التفاؤل على الرغم من أن موقفهم المتسامح لم يكن ـ بصورة مباشرة ـ من وحي هؤلاء المستعربين أو من خبراء الإسلام"[٢٩] ، والنتيجة الثانية هي أن " هناك دلائل تثير القلق تشير إلى تزايد العداء أو الكراهية ضد العرب ، ويتبع هذا بالتالي عداء ضد الإسلام ، وهذا العداء في جذوره من صنع المستشرقين، إلا أن المستشرقين وأدعياء الاستشراق الجدد قد زادوه الآن حدة وشمولاً ، وهم بذلك قد أعادوا فعلاً أحقاد وعصبيات القرون الوسطى النصرانية ضد الرسالة من جديد "[٣٠]

يلحظ إن " الطيباوي " لم يضع أمامه سوى مجموعة من القساوسة الذين أثقلوا كاهل الاستشراق ، ذلك من خلال ما ذهبوا إليه من القول ب " بشرية القرآن" ، وهذا الإنشاء يستند إلى أصول يهودية ومسيحية ، وكلها دعاوي اعتباطية لأنها لا تقوم على التحقيق التاريخي على مجرد الافتراض والتخمين . وينتهي الطيباوي كما انتهى " بن نبي " إلى الطريق المسدود ، إي إلى أن " الإدراك الديني تجربة روحية حدسية ، ولا يمكن التقاطها بالمناهج ـ التحليلية والنقدية. وهؤلاء الذين يكونون خارج نظام ديني لا يمكنهم اقتناص دلالة التجربة التي يمارسها من يعيشون داخل هذا النظام "[٣١]

وبناء عليه فأهل مكة أدرى بشعابها ، والكلام في الإسلام لا يجوز إلا لإهله الراسخين في تجربته وفي العلم ببواطنه والمؤمنين بكتابه الموحى وبأركانه ، وأما لغير هؤلاء أي للمستشرقين ومن شاكلهم ، فالكلام الحق عن حقيقة الإسلام غير ميسر ولا قابل لأستيفاء شروط الدقة والموضوعية .

لقد كان حرياً بباحثنا أن يترك جانباً مهمة الرد ـ التي ما أسهلها ـ على صنف من المستشرقين يحملون سيماهم في وجوههم من كثرة عداوتهم للإسلام ، وذلك حتى يتفرغ إلى صنف آخر أنجح وأرقى ، لا سيما وأن الردود عليهم من داخل الاستشراق نفسه نعثر عليها بيسر كبير عند اقطاب مثل أربري وشاخت وجيب ولويس... لكن بغض النظر عن ذلك الرد اللا مجدي ، فإننا نجد عند صاحبه وجها آخر في نقده للإستشراق ، ويتعلق بالمنهج المقارن الذي يصبح عند مستعمليه المسيئين ضربا من الخلط والخبط والتعتيم ، إذ أنه يتم لمن له من المستشرقين ثقافة موسوعيه أو عامة أن يعمل بمقولتي الأصل والتأثير ، فيجري وراء جمع الأشباه والنظائر في الظواهر الدينية ويربطها بمنطق تبعية اللاحق للسابق وأفضلية هذا على ذاك [٣٢].

خاتمة بوصفها مقدمة.

إن هذا الذي تقدم من رفض اللاستشراق عند المفكرين العرب السالف ذكرهم ، يجعلنا نفهم لماذا لم يستطع النقاد الإسلاميون للاستشراق الإفادة من محاولة جادة ، كمحاولة إدوارد سعيد الشهيرة فنقد سعيد تفكيكي ، هدفه إيضاح أجزاء الصورة الوهمية التي يضعها الغرب لنا لخدمة أهدافه ، وهو بذلك ينقد غرباً معيناً على غرب آخر ، وتبلغ المحاولة في أحدى ذراها " كشف الحساب " بالمعنى الكبير بين حضارتين أو حضارات وثقافات . أما النقد الإسلامي ، فينظر إلى الغرب باعتباره آلة ضخمة ، يشكل المبشرون والمستشرقون إجزاء مهمة فيها ، إنها الوحش الخرافي الذي يسمى احياناً " مادية " واحياناً اخرى " جاهلية " وفي احسن الاحوال :" بشرية " بينما حضارتنا إلهية أو قدسية . وهذه الآلة بمجموعها زاحفة علينا ، فينبغي مواجهتها كلها وبشتى الوسائل دونما تفرقة أو أولويات . وما دام المفكرون الإسلاميون يعتقدون أن الحرب الغربية علينا شاملة ، فإن حربهم المعلنة على الغزو الثقافي وعملائه عندنا ستبقى شاملة ، وأن خالطتها في السنوات الأخيرة تكتيكات التسييس .

هوامش البحث

[١] ـ حسن حنفي : دراسات إسلامية ،مكتبة الانجلو المصرية ،القاهرة، ص ١٠٧ ـ ١٠٨ .

[٢] ـ المصدر نفسه ، ص ١٠٧ ـ ١٠٨ .

[٣] ـ انظر مكسيم رودنسون : وضع الاستشراق المختص بالإسلاميات ، ضمن كتاب الاستشراق بين دعاته ومعارضيه ترجمة هاشم صالح، ،دار الساقي ،بيروت،ط٢ ،٢٠٠٠، ص ٩٠ ـ ٩١ .

[٤] ـ إدوارد سعيد : الاستشراق/المعرفة /السلطة/الانشاء ،ترجمة كمال ابو ديب، ، مؤسسة الابحاث العربية ،بيروت ،ط ٥، ص٢٧٣ .

[٥] ـ فرانتز روزنتال : مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي ، ترجمة د. أنيس فريحة ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ص ١٩.

[٦] ـ إدوارد سعيد : الاستشراق ، ص ٢٧٣ .

[٧] ـ د. محمد بن عبود : منهجية الاستشراق في دراسة التاريخ الإسلامي ، ضمن كتاب مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية ، ج ١ ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، تونس ،١٩٨٥، ص ٣٦٥ .

[٨] ـ سالم خميس ، الاستشراق في آفق انسداده ، المجلس القومي للثقافة العربية . ط ١ ، الرباط ١٩٩١م ، ص ٩٣ .

[٩] ـ يبدو أن القائمة تطول في إحصاء الكّتاب الهواة والمحترفين في رفض الاستشراق وذلك لصدورهم عن أساس واحد ، الباعث الحقيقي له هو الصحوة الإسلامية ، والقومية العربية ، حيث يصفوا المفكر مغترباً بمجرد التنصل من هاتين الفكرتين ، مع لحاظ الدعوة إلى الحداثة والتنوير .

[١٠] ـ أحمد سما يلو فتش : فلسفة الاستشراق وأثرها في الادب العربي المعاصر، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٩٨، ص ٦٩٥ .

[١١] ـ محمد البهي: الفكر الإسلامي وصلته بالاستعمار الغربي، صدرت الطبعة الأولى ١٩٥٧ وملحقه عن المستشرقين في الطبعة الرابعة، الصادرة عام ١٩٦٤.

[١٢] ـ تطورت هذه المقالة واصبحت كتاباً قام بترجمته د. قاسم السامرائي ، جامعة محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ، ١٩٩١م.

[١٣] ـ أنظر محمد البهي : الفكر الإسلامي الحديث ، ص ٣٩ ـ ٥٤ .

[١٤] ؟

[١٥] ـ محمد البهي : الفكر الإسلامي الحديث ، ص ٤٨٣ وما بعدها .

[١٦] ـ سالم حميش : الاستشراق في آفق أنسداده، ص ٩٤ .

[١٧] ـ أحمد سمايلوفتش : فلسفة الاستشراق ، ص ٦٩٣ .

[١٨] ـ مالك بن نبي : إنتاج المستشرقين واثره في الفكر الإسلامي الحديث ، دار الارشاد ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٦٩ .

[١٩] ـ مالك بن نبي : إنتاج المستشرقين ، ص ٢٥ .

[٢٠] ـ علي بن إبراهيم النملة : الاستشراق والدراسات الإسلامية ، مكتبة التوبة ، الرياض ، ط ١ ، ١٩٩٦ ، ص ٢١٥ .

[٢١] ـ مالك بن نبي : إنتاج المستشرقين ، ص ٨ .

[٢٢] ـ المصدر نفسه : ص ١٥ .

[٢٣] ـ المصدر نفسه : ص ٢٠ .

[٢٤] ـ المصدر نفسه : ص ٤١ .

[٢٥] ـ المصدر السابق : ص ١٨.

[٢٦] ـ المصدر نفسه : ص ٤٨.

[٢٧] ـ د. عبد اللطيف الطيباوي : المستشرقون الناطقون بالانجليزية ، دراسة نقدية ، ترجمة د. قاسم السامرائي ، ط ١ ، الرياض ، ١٩٩١

[٢٨] ـ إدوارد سعيد : تعقيبات على الاستشراق، ترجمة صبحي حديدي، ط ١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، ١٩٩٦. ص ٣٩٢.

[٢٩] ـ الطيباوي : المستشرقون الناطقون بالانجليزية ، ص ١٥٩ ـ ١٦٠ .

[٣٠] ـ المصدر نفسه : ص ١٦٠.

[٣١] ـ الطيباوي: المستشرقون الناطقون بالانجليزية ، ص .

[٣٢] ـ سالم حميش : الاستشراق في آفق انسداده ، ٩٥.